رسائل التعليقات للرصافي

للأستاذ دريني خشبة

لم يكن أحب إلى من أن أكتب عن الرصافي الشاعر الذي أحبه كما أحب هذه النخبة الكريمة من شعراء العراق الشقيق، لا الرصافي الفيلسوف الذي يدعونا إلى دين جديد !

ولم يكن أحب إلى من أن أترك القلم للصديق الأعز، أخي الدكتور زكي مبارك، لأن القضية قضيته، والموضوع موضوعه، وهو الذي فتح علينا باب هذه الفلسفة الجديدة التي أخذ الرصافي يدعونا إليها من دار السلام

لكن الدكتور زكي مبارك يخاصم الزيات اليوم تلك الخصومة التي لا سبب لها، ويخاصم الرسالة تلك الخصومة التي لا سبب لها كذلك ... إنه يخاصم الزيات ويخاصم الرسالة لأنهما أطلقا العنان لحرية النشر وحرية الفكر وحرية المجادلة، وأرادا أن يسجلا هذه الصفحة الخالدة من صفحات حرية البحث التي كان الدكتور علماً من أعلامها، بما أثبت في كتبه الكثيرة الجريئة من أفكار وآراء، وهي أفكار وآراء تمس ديننا وتمس لغتنا، بل هي تخوض فيهما خوضاً ... أفإن رأى أحد مفكرينا من ذوي الغيرة على الدين واللغة أن بعض هذه الآراء قد جار عن القصد، وجاء مائلا بديه بالبرهان وبالدليل، أو بما يؤمن هو أنه البرهان وأنه الدليل، على بطلان ما ذهبنا إليه، غضبنا ... وتركنا مجادلنا يقول كل شيء، ولا نقول نحن شيئا ؟

إن الدكتور زكي مبارك غاضب لأنه لم يكن ينتظر أن يهاجم في ميدانه الذي هو الرسالة ... ولقد كنت أغضب مثله حينما أراني أهاجم، بل أتهم، في الرسالة التي أعدها ميداني ... وكانت حجة الأستاذ صاحب الرسالة أنه كثيراً ما نادى بأن الرسالة :

تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية
وتجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية
وتصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

وأن مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة ...

في جماعات الحيوان إلا في حدود الغريزة الضيقة في الأمومة والأبوة في بعض الحيوانات العليا، ولم تنتج حياة الاجتماع في جماعات الحيوان نتائج تزيد على حاجات هذه الغريزة المحدودة. بينما تنتج حياة الاجتماع في الإنسان نتائج كثيرة جداً جعلت أمام العالم الطبيعي عالماً آخر صناعياً، وجعلت الوعي الاجتماعي في الفرد مبنياً على عقل الفرد وفلسفته لا على غريزته وحدها. إن الجماعة البشرية سائرة من الفردية في الأمة إلى الجمعية الدولية، وبوادر هذا واقعة الآن في هذه الحرب. وبذورها وجدت من قبل في المجموعات السياسية الكبرى. ولا شك أن هذا يستتبع كبتاً للنوازع الفردية في كل أمة من الأمم التي تشترك في هذه المجموعات، ونزولاً عن بعض خصوصياتها وحرياتها وحقوقها التي كانت لها وهي فريدة، كما استتبعت حياةُ الجماعة في الأمة الواحدة نزول الأفراد عن كثير من حقوقهم وحرياتهم التي كانت لهم قبل حياة الجماعة. فالقانون واحد مطرد: وهو السير من فردية الأسرة إلى اجتماعية القبيلة ثم إلى الأمة ثم إلى الأمبراطوريات واتحاد الولايات. ومن هذه إلى جمعية الأمم التي هي أمل العالم

وليس ذلك في السياسة وحدها، فإن ما في السياسة ينتقل إلى الثقافة والفن الذي ثار حوله هذا الجدل. فالآثار الفنية الأولى في الأدب العربي مثلاً لم تكن غير مقطوعات شعرية غنائية هاج بها وجدان قائلها في مناسبات الحب والفراق والفخر والحماسة والمدح والرثاء وغيرها من أغراض الشعر الغنائي، وهو لا شك شعر فردي يستجيب للأحاسيس والوجدانات الخاصة. ثم أخذت هذه المقطوعات تطول وتتسع للأغراض الاجتماعية فتذكر فيها الحروب والوقائع والمفاخر العامة للقبيلة حتى انتهت بالمطولات والمعلقات التي اهتم بها غير قبيلة قائلها من العرب. ثم ابتدأ ذكر الأمة العربية كلها يسطع في الشعر العربي حين وضعها الإسلام وضعاً واحداً أمام الأمم الأخرى التي احتكت بها في النضال والفتوح. أفلا يقال بعد ذلك إن الفردية في الفن العربي كانت تقل نسبتها تبعاً لنمو الوعي الاجتماعي بين العرب ؟

(للكلام بقية)

عبد المنعم خفوف

وأنه لذلك يؤثر أن تكون الرسالة دائماً سجلاً صادقاً لاحتراب الأفكار فى مصر وفى الشرق العربى بحيث يجد فيها مؤرخو العالم بعد ألف سنة صورة حقيقية لما كان يجرى فى هذه الأقطار من جدل يدل على الحياة ، ونضال يثبت الشخصية ... وكانت حجة الزيات الأخرى أن الرسالة تناولت بالنقد كل كتابها الأماثل ، وأن الدكتور زكى مبارك نفسه كان أحد مغاوير هذا النقد ، فلم يكد يسلم من قلمه أحد ممن لهم فى تحرير الرسالة الجهاد المشكور . لكن النقد الذى كان الدكتور يشب ناره لم يكن نقداً يمس الدين ويمس العقائد ، كهذا النقد الذى وجهه إليه أخيراً أحد الكتاب الأفاضل الغُيُر . والذى كان سبباً فى تنكر الدكتور للرسالة ولصاحب الرسالة

وبعد ... فحسبنا خروجاً على موضوع هذه القضية التى تسبب فى إثارتها الدكتور زكي مبارك بكتابيه العظيمين اللذين لم يؤلف مثلهما كثيراً لا فى مصر ، ولا فى الشرق العربى ألا وهما :

١ — فى التصوف الإسلامى

٢ — النثر الفنى

ولعلى لا أثير سخط أحد بوصف هذين الكتابين بالعظمة ، وبالرغم مما يحملانه من أوجه النقص التى أشار إليها غير واحد من الكتاب والتى وصفتها لأخى الدكتور زكى مبارك أول ما لقيته بالقاهرة فى العهد الأخير بأنها — أى أوجه النقص هذه (بُقع !) كبيرة كان يحسن بالأستاذ أن يتحاشاها حتى لا تقلل من قيمة كتابيه الجليلين ... وكان هذا قبل عامين على ما أذكر . على أنه ليس هنا — أو ليس الآن — موضع التحدث عن آيات الخلود فى هذين الكتابين ... لأننا نكتب هذا الكلام بمناسبة ذلك الكتاب المفاجىء الذى وصل إلى مصر من العراق الشقيق ، والذى ألفه الشاعر الفاضل معروف الرصافى ، وسماه : « رسائل التعليقات » (مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٤٤) وجعل ثلثيه فى نقد كتابى الدكتور زكى مبارك فى التصوف الإسلامى والنثر الفنى ... والعجيب أن الدكتور زكى لم يطلع بعد على الكتاب الذى ألف فى نقده ، ولو لم أكن مشغولاً بقراءته ومناقشة ما فيه لدفعت به إلى صديق ليسمعنا رأيه فيما رماه به شاعر العراق من تهم أشهد بين يدى الله أنه برىء منها ، وإن خانه التعبير فكتب ما يشتم منه هذا الذى أخذه عليه ناقدوه

وقبل أن نعرض آراء الأستاذ الرصافى نعلن أننا نقدس حرية الفكر ما لم ترم إلى شر ، وما لم تكن نتيجتها بلبلة أفكارنا والعصف بمعتقداتنا ، وهدم المعايير الأخلاقية الكريمة التى زودنا بها ديننا الذى هو أعز علينا وأكرم من فلاسفة العالم

وقبل أن نعرض آراء الأستاذ الرصافى نعلن أننا نؤمن بالله هذا الإيمان الفطرى الساذج الذى قذفه الله فى قلوبنا ، وأثار به بصائرنا . وأن الله هو خالق تلك الأكوان كلها ، فالله شىء والأكوان كلها شىء آخر . وليس الله مجموعة من القوانين الطبيعية كما يقول الفلاسفة . وإيماننا هذا الساذج الفطرى هو الذى يصحبنا فى تفكيرنا دائماً وهو لسهولته ويسره لا يشغلنا كثيراً ، ولا يقذف بنا فى تلك المهامه التى تورث الخبال ، ولا تثمر إلا الضلالة ، وهو لسهولته ويسره يصرفنا إلى ما هو أجدى من أمور هذه الحياة التى يملأها الجد ... ونحن بهذا الإيمان الساذج الفطرى الذى نطبع به الله ونحب به رسوله ، . والذى ندعو الله أن يزيده فى قلوبنا رسوخاً أكثر تمدينا من الذين يرموننا بالجمود ، فما أرسل الله رسله إلا لمحاربة الجمود وهداية الناس إلى الحق واليقين

وقبل أن نعرض آراء الأستاذ الرصافى أيضاً ، نذكر ما أخذ على الأستاذ من الجرأة فى العقيدة ، والتحلل مما جاء به النبيون أو تأويله بما يلائم أفكاره ، ولا يزال القراء يذكرون هذا الذى نشرته الرسالة عن عقيدته سنة ١٩٣٥ (٨ يوليو العدد ١٠٥ — السنة الثالثة) نقلاً عن الأستاذ أمين الريحانى الذى يقول :

« إن للرصافى رأياً فى الوحى الشعرى غريباً : هو لا يؤمن

بالوحي ، أو بالحري الوحي المنزل ، إنما يعتقد أن القوة الشعرية في الإبداع ، تتعلق بقوة الباه في الجماع ! وأن الضعف الذي يعتري القوة الواحدة يتصل بالأخرى ، إذن لا بد من التوازن بينهما ... بل هو ضروري ...

« ... ثم ذكر (أي الرصافي لأمين الريحاني) النبي محمداً وهو في نظر معروف شاعر عظيم ... على أن أجمل قصائد النبي ، أي أجمل السور القرآنية ، إنما هي التي جاء بها في عهد الاعتدال الجنسي ، يوم لم يكن له غير خديجة زوجاً ، أما بعد وفاة خديجة ، فقد أصبح محمد مزواجاً ، وكانت القصائد — السور — في هذا العهد مثل نسائه ، أي دون ما تقدم منها ومنهن

« فقد كتب الرصافي سيرة النبي محمد ، وأطلعني عليها مخطوطة بيده ، في سبعة دفاتر من الدفاتر المدرسية ، فما أدهشني منها ما فيها من العلم والتحقيق ، لأن مصادر الموضوع متوفرة لمن شاء معالجته ، وأحسن البحث والموازنة ، إنما أدهشني القوة النافذة والمقدرة على التحليل والاستخراج ، والتفلسف في عقائد لا تستقيم بغير الإيمان والجرأة والصراحة مع الاتكال على العقل والعلم فيهما

« فقد استخدم في سيرته المصباح الذي استخدمه العلماء الأوربيون في نقد التوراة — أي مصباح النقد الأعلى الذي ينير العلم بنور العقل والمقارنات التاريخية . ومما يزيدك إعجاباً بالرصافي أنه لا يحسن لغة أجنبية[1] ، فقد ركن في كل ما حلل وأوّل واستخرج واستنتج إلى اجتهاده الخاص ، وإلى علومه الواحدة العربية

« وإنك لتدرك الروح في مصنفه هذا إذا علمت رأيه بالله ، فقد قال لي مرة : إن الآية : لا إله إلا الله ، لا معنى لها ، ويجب أن تبطل ، أو تبدل بالآية : لا إلـه إلا الوجود ، أي أن الكون هو الله ، هي عقيدة البانتيزم ، أي الحلول ، وهو فيها

(١) في الكتاب الجديد للرصافي يقول إنه يتقن اللغة التركية

على اتفاق والزهاوي . وقد يهمل وينسى كثير من شعر الرصافي في المستقبل ، وتظل سيرته النبوية من الكتب التي تقرأ وتكتنز

وقد علقت الرسالة على هذا اللغو تعليقاً كريماً ، فذكرت أن حكومة العراق صادرت كتاب الريحاني لمثل هذا الهتر ، وأن الرصافي قد يقول شيئاً من هذا الكلام في ساعة لهوه ليطوى في بساط الشراب ، لا لينشر على الناس في كتاب ... الخ »

لقد تعمدنا أن نطيل الاقتباس لأن الرصافي عاد فردد هذه الأراجيف في كتابه الجديد الذي لم يُصادر ، وينبغي ألا يصادر ، فالمصادرة سلاح رث لا يجمل استعماله في هذا العصر الذي يأخذ بحرية الفكر ... وسنرى كيف تبطل هذا اللغو بعد عرض آراء الأستاذ الكبير ...

(يتبع) دميني غشيبة

الشـــوامخ

امرؤ القيس

درس وتحليل

بقلم

الدكتور محمد صبري

أول كتاب يبرز عبقرية زعيم الشعر الجاهلي بأسلوب جديد يستند إلى التحليل المقارن بأدب الإفرنج

يطلب من المكاتب الشهيرة ـ الثمن ٣٠ قرشا